"على هامش محاولة تواطؤ"

كتابة فرح برقاوي

يونيو - حزيران ٢٠١٩ / ٢٠٢٠

توطئة

كتبت هذا النص منذ ما يقرب من سنةٍ اليوم. كنا في زمنٍ آخر ومكانٍ آخر. النص، كما التجربة التي يحكي عنها، يتساءلان عن المستقبل. هل نحن في ذلك المستقبل؟ أم نحن في الطريق إليه؟ يحكي النص في زمنه المكتوب عن الراحة والتعب، عن الشعور بالوحدة والاستحقاق والتضامن داخل الوسط المعاصر للفن والثقافة. يتساءل عن العناية الفردية والجمعيّة. أسئلةٌ حطّت علينا فرادى وجماعاتٍ وكوكبًا بأكمله، وما نزال ندور بين رحاها، ونستطعم بعض الإجابات. ربما.

لم يُنشر النص في سنة كتابته، أو بالأحرى لم أسعَ لنشره حينها، انتظرت سنةً، أشبه بما يبدو عمرًا الآن. ويبدو لي أنه أليق لسنتنا الحالية. هو ابن المستقبل الذي يسأل عنه.

/ / /

تنويه

هذا النص ليس بشخصي. هو نص تأملي واشتباكي مبني على تداخلات وقائع شخصية وجماعية مع تفاعلات داخلية وخيالية حدثت في حياة الكاتبة حتى لحظة العودة من لقاء «متواطِئون» الأخير من تنظيم «مفردات» في دلفي، اليونان، الأسبوع الأول من حزيران/يونيو ٢٠١٩.

/ / /

مبتدأ

أتممت الرابعة والثلاثين من عمري ليلة السابع من حزيران/يونيو في دِلفي، وسط مجموعةٍ من المتواطئيت*؛ عابثات وعابثين في الفن ومساقاته ومؤسساته وأزماته وحلوله وتقاطعاته مع اللغة والعمارة والطبيعة والأكل والزراعة والرياضة والتهجير والحروب وأنظمة القهر والسحر والتكهّن.

تلقيت الدعوة لحضور «متواطئون ٢٠١٩» قبلها بشهرين من «مفردات»، ولم أفكّر قبل أن أردّ أن أجل سآتي حتمًا إن حصلت على الفيزا في الوقت المناسب طبعًا. كنت قد اعتذرت عن دعوةٍ سابقة لضيق الوقت وغياب الفيزا. هذه المرة كرّست كل جهدي لكي أحصل أولًا على فيزا في الوقت المحدد، وثانيًا على فيزا تمنحني بعض الوقت والحرية.

لثلاث سنواتٍ مضت كنت أجرب الحصول على فيزا تطول عن مدة السفر القصيرة لأوفر تكاليفًا نفسية ومادية كثيرة في كل مرة أتلقّى دعوة لاجتماع ما دون جدوى. لكنني هذه المرة نجحت أخيرًا، بعد توسل وتجميع رسائل كثيرة من جهات داعية، ودفع نقودٍ كثيرة، ولملمة رزمة من الأوراقٍ البيروقراطية، نجحت أخيرًا في استحقاق فيزا تمنحني أكثر من أسبوع أو أسبوعين فقط للسفر، نجحت في إثبات استحقاقي للحركة بشكل أسلس عن مُجمل مجهوداتي واحتراقاتي ما بين العمل والفن، نجحت في الحصول على امتيازٍ جديد.

/ / /

* متواطئيت، بدلًا من متواطئون ومتواطئات. أسلوب نحوي جديد ابتدعناه ونجرّبه في مشروع «ويكي الجندر» لخلق جمع شامل لكل الهويات الجندرية في آن، طيف بدلًا من الثنائيات. الياء من جمع المذكر السالم، والتاء من جمع المؤنث السالم. جرّبوها عند جمع الأسماء.

وصول

جئنا، قرابة الخمسين شخصًا وشخصة** ممن يعيشون منّا جنوب المتوسط وممن اختاروا أو أُجبروا منّا على العيش في الشمال منه. من انتظروا أسابيعَ ليحصلوا على تأشيرات الحركة، ومن «نجحوا» بدخول عالم الإقامات والجوازات المميزة. وصلنا على دفعات بحسب مزاجات شركات الطيران وأحوال الطقس وأسعار التذاكر. وصلنا مرتين. الأولى إلى مطار أثينا. والثانية إلى دلفي. إلى دلفي أو دلفوي القديمة، الماكثة على منحدر جبل پرناسوس، الصامتة صمت الحكمة، العارفة ما تُكتّه للقادمين من وهم القداسة أو حقيقتها، الجامعة بين الغياب وبين النبوءة، والمختبئة في طيّات الكثير من آثارها أمنيات وأمنيات للباحثين عن المشورة وبعض الأمل.

في الباص من المطار إلى وسط أثينا إلى دلفي عُدنا إلى أجواء الرحلات المدرسية. صدح صوت نسائي ينادي الأسماء جميعها. هل كلّنا هناك؟ هل نسينا أحد؟ هل غاب أحد؟ نجحنا في الاختبار، شغلنا كراسي الباص أغلبها، وخلقنا ما يتشكّل عادةً في الباصات: أحاديثٌ جانبية بين البعض، وغفواتٌ متقطعة من البعض، وتنقّلاتٌ عابرة بين كرسيّ وآخر، وحديثٍ وآخر، وصمتٌ استراتيجي لواحدةٍ هنا وواحدٍ هناك في تنبؤٍ لندرة الصمت في الأيام التالية.

توقّف الباص عند نقطة ما. شوارع المدينة الصغيرة لا تتسع لضخامة الإنتاج الحديث. وهبطنا. كان على الأجسام أن تتحرّك صعودًا. أجسامٌ حيّة تجرّ نفسها وتجرّ معها أجسامًا مكعبةً بأحجامٍ وألوانٍ مختلفة. أجسامٌ حيّة تلهث من زحام المدن التي تعيشها، من آثار التدخين في الرئات، من الوزن، من قلّة الحركة أو استحالتها أحيانًا، ومن قلّة النوم. جررنا أنفسنا وحقائبنا إلى المكان الذي سنتوسّده ونغيّره ونملؤه أفكارًا وأصواتًا ونقاشاتٍ وجدالاتٍ وغيظٍ وقهوة وأكلات وحركة.

مشينا صعودًا، وأعيننا تسرح رغمًا عنّا في الحضور الطاغي للجبال والفراغ والألوان، ورئاتنا تتعرّف على هواءٍ جديد، على نقاءٍ لا نعهده عادةً، أو لا تسمحُ لنا حيواتنا اليومية باستنشاقه والاختمار فيه. الجبال تشبه جبال فلسطين التي كنت ألمحها في الزيارات النادرة والقديمة جدًا لقريتي «برقة» قضاء نابس عندما كنت قادرةً على الزيارة، وتشبه جبال لبنان التي أزورها بندرةٍ حين أزور البلاد لفرط الانشغال بالمدينة المركز والعمل، لكنها أكبر بكثير، وأسهل وصولًا لي بكثير، وأخضر وأشدّ رهبةً كأنّ آلهة المعابد لم تغادرها حقًا. أُكرّر المزحة المستهلكة بيني وبين نفسي وللآخرين أيضًا: «يا له من دليل غريب على غضب الله على الغرب الضال!».

وصلنا إلى ورطةٍ جماعية. إلى التورّط الذي اخترناه أو استجبنا له دون سؤال. كل ما عرفناه عن الورطة كان سؤالًا فضفاضًا وغير محدّدٍ في دعوة «مفردات»: «أين هو المستقبل؟» وتساؤلاتٍ أخرى تحاول تفصيل الأحجية، تساؤلات بدت مطّاطةً للبعض وغرائبية للبعض عن مفاهيم مثل الغياب والحركة والتواطؤ والتنبؤ. قبل الوصول اختار كلّ منّا - بجرأة المستسهل أو دهاء الاستراتيجي - سؤالًا ليجيب عنه أو عنّا من خلاله. لكن أغلب الأجوبة لم تحضر حتى لحظة اللقاء. لا يمكن لأجوبة أحجيةٍ جماعيةٍ أن تحضر كاملةً قبل اجتماع الحضور، لا يمكن للتواطؤ أن يكتمل قبل استراق النظرات وإدراك الفجوات وسماع الأحاديث وتحسّس تضاريس الورطة وجهًا لوجه.

/ / /

خبر المبتدأ

لم أذكر عيد ميلادي الرابع والثلاثين في البدء اعتباطًا. من ناحية، يمثل هذا العيد تساوي سنوات الطفولة مع النضج لي، ففي المنتصف تمامًا - أي منذ ١٧ سنة - غادرت بيت أمي في غزّة طفلةً وحيدةً مدلّلةً وذهبت إلى القاهرة طالبةً الاستقلال والنضج والمعرفة. لم أعد إلى البيت أبدًا، وكثّفت كلّ التجارب والمدن التي سكنتها لاحقًا لأصبح ما عليه اليوم من امرأة.

أما الناحية الأكثر علاقة بهذه الرحلة، أن كان هذا العام الأول الذي أسمّي فيه نفسي دون تردّد: كاتبة وفنّانة. طيلة السنوات السبعة عشر الماضية كنت أشياء كثيرة، كنت الطالبة وكنت الموظّفة، كنت أكتب وكنت أمثّل وكنت أغني

** شخصة نعم، لم لا؟

ضمن مشروعاتٍ متفرقةٍ وقصيرة، وكنت الناشطة النسويّة، والمترجمة والمحرّرة والمنسّقة، لكنني انتظرت كثيرًا كثيرًا قبل أن أجرّأ وأسمّي نفسي الكاتبة أو الفنانة، انتظرت ١٧ سنة من النضج والاستقلال والعمل المكثّف وورش العمل والكتابات والمحاولات لأنتج عملي الأدائي الفردي الأول وأسمح لنفسي بعده بدخول «عالم الفن»، وأرتاح لأن يراني ويسميني الآخرون بذلك أيضًا.

لذا، حين تلقّيت دعوة مفردات لحضور لقاء «متواطئون ٢٠١٩» لم أفكّر مرتين مع أنني لم أفهم جيدًا طبيعة اللقاء. فرصتي قد حانت أخيرًا لاستكشاف مساحةٍ أنكرتها طويلًا وأستحقّ التواجد فيها. قرّرت أن أؤمن بفرصة الحضور ولقاء أشخاص جدد يحاولن ويحاولون التعبير بطرقهم الخاصة.

/ / /

«ما الذي أفعله أنا هنا؟»: في الغياب والحضور

في الطريق من المطار إلى دِلفي، كنت أعتقد بأنني الوحيدة التي تشعر بحداثة الاستحقاق هذه وغرابتها، تبدو البقيّة ذات خبرةٍ أعلى في عالم الفن ومؤسساته. كيف دُعيت هنا؟ كيف عرفوني؟ هل أنا هنا لنشاطي النسوي كما هي العادة في الدعوات التي أتلقاها في السنوات الأخيرة؟ أم أنني هنا لأنني كاتبة وفنانة؟ أم الاثنين معًا؟

وفي اليوم الأول كان الغياب الشهريّ للقمر، أو فترة انتظار قمرٍ جديد، وكان سؤال الغياب/الحضور. من وما الذي نريده أن يكون حاضرًا في هكذا لقاءٍ جماعي أو في اللحظة الراهنة من ممارستنا وحياتنا؟ ما الذي نريد أن نغيره؟ ومن وما الذي نريده أن يختفي؟ وما التفاصيل التي نريدها أن تعود من الغياب؟ (كان أحدنا غائبًا بالفعل لتأخّر الفيزا. سيحضر في اليوم التالي. كان هناك غائبون آخرون ممن لم يحصلوا على فيزا أو ممن اعتذروا لانشغالات واختناقات. أفكّر الآن، لِمْ لمْ نتحدث عن هؤلاء الغائبين؟)

كان علينا البدء من الغياب، المنسيّ عادةً في لحظات البدء. الغيابُ يُعكّر صفو الأفكار وحماس الانطلاقات، لكنه نفسه ما يمنح المعنى لممارساتنا الفنية وتفاعلاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. الغياب هو ما يمنحنا المساحة للغضب، وللاشمئزاز، وللحداد، وللتجريب، وللخلق، وللخيال، وللتنظيم.

أولُ ما قفز من التساؤل حول الغياب، كان سؤال الاستحقاق. لم أكن وحدي إذن. كان هناك آخرون لم يفهموا سبب وجودهم في اللقاء أو يشعروا باستحقاقهم للتواجد، مقابل آخرين غائبين أقدم اختارًا ربما أو أكثر إنتاجًا أو أعظم ثقةً أو أشد علانيةً في ما يتعلّق بتفاعلاتهن الفنية. صرخت «ح» بصوتٍ مندفع: «ما الذي أفعله أنا هنا؟». كانت، مثلي، متوجّسةً بخصوص حضورها بخصوص المغزى من اللقاء أصلًا، لكنها حضرت بالفعل؛ «أريد أن أمنح هذا اللقاء فرصة وسط كل هذا الشك».

أحد الأسئلة المطروحة كان عن ما الذي نريد أن نغيّره؟ ومع تعدّد أصوات الشكّ خلال اليوم، فكّرت أننا نريد المزيد من الثقة. توازنًا أفضل بين صوت الشكّ الضروري وبين صوت الثقة بما نعيشه ونفعله ونقدّمه للعالم. في الحقيقة، نحن، غير المتأكدات من استحقاقنا أو استحقاق البعض للتواجد داخل التجربة، نحن بحاجةٍ للتعامل برفقٍ أكثر مع أنفسنا. نحن من نحاول أن نصنع بعض التغيير وبعض الفن، أن نبحث في الأرشيفات وأن نشتبك مع الصور الغائبة والأصوات المرتبكة، أن نُذيب الشخصي بالعام، أن نفرد تفاصيل فضولنا وأمراضنا وتجاربنا وتساؤلاتنا وهفواتنا على طاولةٍ في معرضٍ أو في شريط فيديو يدور على نفسه دون توقف. لم نُسائِل أحقّيتنا في اللقاء والتواطؤ؟ ألا نستحقّ لقاءً آمنًا؟ خلوةً ما؟ فرصةً للتأمل وللتعافي الجماعي؟ فرصةً مختلفة للتخريب وللخلق وللنمو؟ لم يجب أن نغيب ليحضر أخريات وآخرون؟

قد يكون السؤال الذي يجب أن نطرحه هو كيف نضمّ المزيد من المتردّدات والمتردّدين إلينا؟ كيف ننظّم الفرص بيننا وكيف نوزّعها ليستحقها ويغتنمها أكبر عددٍ مُمكنٍ منّا؟ كيف ننخرط في تجربةٍ تتنوع فيها الممارسات وسنوات الخبرة والإنتاجات والرؤى والتحديات العملية والطبائع الشخصية والثغرات النفسية والاحتياجات العاطفية؟ كيف لا نشعرُ بالذنب أو بقلّة الاستحقاق إن لم ننتج بشكلٍ هوسي؟

ما عليه أن يكون حاضرًا هو نحن وأسئلتنا وحيرتنا وقدراتنا وهشاشتنا كلّها، والذي عليه أن يختفي هو الشعور بالذنب والهوس بالإنتاج، هو الصوت الرأسمالي والبطريركي المتغلغل فينا رغمًا ومحاسبنا على كل نفسٍ نتنفسه وكمّ الإنتاج الذي نقوم به مقابل هذه الأنفاس، الذي يجعل كثيرًا من الحاضرين يشعرون بالقلق وعدم الاستحقاق، ويجعل قلّةً أخرى تشعر بالامتعاض ومضيعة الوقت لأن اللقاء لا يتضمن اتفاقاتٍ عمليّةٍ حتمية.

/ / /

«الشيء الذي كنت أريده أن يختفي كان أنا»: في التغييب والاستحضار

كتبت في دفتري بنهاية اليوم الأول: لا أعرف إن كانت الطبيعة هي ما يخيفني، أو إن كان غيابها المرتقب. أخاف من الفقد الحتمي للهواء النقي.

في الشهور السابقة لهذا اللقاء كنت أحترق رويدًا رويدًا. من على السطح كنت أعمل بجد وأسافر كثيرًا وأتنقّل بأعجوبة بين العمل على مشروعي النسوي والعمل على مشروعي الفني والمهام الأخرى هنا وهناك في الترجمة والتحرير والتنسيق وغيرها. ومن الداخل كنت أفرغ من الطاقة يومًا بعد يوم وأشعر بالوحدة أكثر فأكثر؛ الانشغال الشديد عزلني عن الكثير ممّا يحدث حولي، كما تعرّضت لخيبات أملٍ متنوّعة ما بين العمل النسوي الذي أنخرط فيه والأصدقاء والحب والعائلة والقاهرة التي أحاول أن أعيش فيها. كنت أجلس وحدي على خشبة المسرح، منتشيةً بحق للمرة الأولى منذ وقتٍ طويلٍ جدًا، وكان الإحساس بالاستقرار والطمأنينة في نفس الوقت يتسرّبان خارج حياتي.

الاعتراف بأن هناك فنانة تسكنني وضعني أمام أسئلةٍ كثيرة متعلّقة بتوزيع الوقت بين كلّ ما أفعله، ومسؤوليتي عن تواريخ التقديم المختلفة للمنح الإنتاجية والإقامات الفنية، وما الذي أريد أن أنتجه أصلًا بعد الإنتاج الأول، ومتى أرفض ومتى أقبل الانخراط في ورشة ما أو تعاون ما أو مهمة مدفوعةٍ ما، وكيف وسط كل هذا أحافظ على طاقتي ومجتمعي وبيتي ونظامي الغذائي وحبي ونومي وقطتي؟ أو على الأقل، كيف أساوم وعلى ماذا بالضبط؟

وصلت إلى لقاء التواطؤ منهكةً وآملة، باحثةً عن أنفاسٍ جديدة. ولم أكن وحدي أيضًا. كنّا، كما حيواتنا وممارساتنا والظروف الإنتاجية القاسية التي يعيشها أغلبنا، نتراوح ما بين الطاقة والشغف والتعب والهشاشة والحيرة. كنّا معرضًا متعدّد المساقات والسياقات من الأفكار المبتكرة وسوءات الفهم، من خيبات الآمال ومحاولات النجاة، كنّا بعددنا الذي قارب الخمسين دورةً كاملةً من حياة، من مشروعٍ ما، من حيرة البدايات وفشل ونجاح المحاولات إلى ارتباك النهايات، والحداد ثم التعافي ثم البدء من جديد.

قالت «د» التي تحاول التعافي من الانهاك والاحتراق بعد قرارها بالابتعاد عن أحد مشاريع عمرها وأكثرهم نجاحًا وأذىً في الوقت ذاته: «كنت أريد لشيءٍ ما أن يختفي أو ينتهي، وبعد وقتٍ أدركت أن الشيء الذي كنت أريده أن يختفي كان أنا».

كانت هذه الجملة بمثابة إجابة سريعة ومباشرة للحظة التي أعيشها. أريد أن أرتاح في الظل قليلًا. أن أملأ البئر الداخلي بعد استنزافات كثيرة. أن أغسل جلدي من كل التوقعات التي علقت به، توقعاتي أنا وتوقعات من حولي. أريد بعض الاستقلالية عن ما أفعله أو أمثّله، لأنني قد ذُبت فيه لدرجة لم أعد أعرف اسمي.

مرّةً أخرى، لم تكن الإجابة لي وحدي، كانت كلّ إجابةٍ كهذه تلفّ علينا جميعًا وتهزّنا من أكتافنا، ثم تغيّر شيئًا ما في أقوالنا وأفكارنا، تمنحنا بعدًا جديدًا لما ظننّا أننا نيقنه ربما. كنت أراقب المجموعة وأراقب نفسي فيها، كنا في لحظة تأمّلٍ جماعية يزيد فيها الوعي بذواتنا وحواضرنا وتشابهاتنا وتشابكاتنا وأقنعتنا، وكان الشعور الطاغي بالوحدة ينقشع رويدًا رويدًا ويتسرّب بدلًا منه قدرةٌ على الشعور مع الآخر والتضامن والاطمئنان.

تدحرجت الإجابة ككرة ثلج على مدار اليوم. أحدنا يريد استراحةً من عدسة سياسات الهوية التي تصنّفه وتصنّف إنتاجه وتقرّر له ولنا أماكن تواجدنا وعروضنا ومصادر دخلنا؛ استراحةٌ من الصندوق الضيّق والغرائبي الذي يُحشر فيه الفن المسمّى بالفن العربي. أما «أ»، فتريد استراحةً من ديناميات العمل داخل ووسط المؤسسات الفنية السائدة.

جعلتنا نفكّر باختفاء هذه المؤسسات وكيف نريد أن نعيد ترتيب الرقعة المتروكة لنا، ومع الإجابات المتكاثرة غدت واضحةً بشدة حاجتنا وتعطّشنا للعناية.

/ / /

الحركة هي الشعور: عن التواطؤ كوصفة للعناية

خلال السنوات الأخيرة، جرّبت وانشغلت ككثيرات وكثيرين بممارسات العناية بالنفس؛ الاهتمام بالتغذية الصحية، اليوغا، التأمل، الزراعة المنزلية، العلاج النفسي، التخفّف من الأشياء والممتلكات، تحسين مواعيد النوم والاستيقاظ، تقليل ساعات العمل، وغيرها. لا شكّ أن هذه الممارسات ساعدتني على الصمود، وعلى اكتشاف المزيد عن نفسي وعن الآخرين، وعلى اكتساب ثقةٍ ساعدتني على كسر قوالب عدّة على المستوى الشخصي والفني والعملي. إلا أننا لا نعيش في عزلةٍ عمّا يحدث حولنا، عمّا ينهار حولنا، وليست كل الأوقات صالحة بالضرورة للعناية بالنفس.

مؤخرًا، أدرك الكثيرون، تحديدًا من المنخرطات والمنخرطين في حراكات نسوية وسياسية، أن العناية بالنفس وحدها لا تكفي، وأن هذا الخطاب إن تواجد وحده يعيد تكريس خطاب الفردانية والمنافسة، خطاب الأقوى والأقدر والأسرع والأكثر إنتاجًا، بدلًا من خطاب جمعيّ معنيٍّ حقًا بالعناية والصحة النفسية، وتكريسها كثقافة وممارسة جمعية وليس فقط كممارسة فردية اختيارية تنتهي بل وتنهار باحتراق وتعب الفرد الواحد.

وحين نتساءل عن الحركة والتواطؤ، نحن قرابة الخمسين إنسانةً وإنسان، المنخرطات في عوالم الفن والثقافة وتقاطعاتها مع المجتمعات والحراكات، والمشتبكين في علاقات ونجاحات وهزائم وأزمات وإدمانات، كيف لا ينهض سؤال العناية من تحت الركام؟ ومعه أسئلة متعلقة بالمؤسسات والأطر التي نعمل ونعيش فيها؛ كيف ندرك تطبيعنا مع الصدمات والإساءات والأذى؟ كيف نعرف الأرضيات المشتركة من تحديات وطموحات وآلام؟ كيف نخلق مساحاتٍ للتعامل مع أشكال التعب الجديدة؟ كيف نُوجد فهمًا مختلفًا لاقتصاديات الثقافة والعمل فيها؟ كيف نُوجد تنظيماتٍ أكثر أفقية وتشاركية؟ كيف نقبل الاختلافات؟ وكيف نمارس الإنصات، بما يتطلبه من حضورٍ وتركيزٍ وانفتاح؟

باعتقادي، كان اللقاء بمثابة تجربةٍ مقصودةٍ وعفويةٍ في آن لاختبار مفهوم التواطؤ. العروض والإجابات على الأسئلة التي طرحتها علينا «مفردات»، تحوّلت بقصد أو دون قصد، إلى بناء تراكمي لمساحةٍ جمعيّةٍ سمحت لنا بالتجرّد من الكثير من الأقنعة والأسلحة اليومية، والجلوس لأربعة أيامٍ مع هشاشتنا والتصالح مع جزءٍ كبيرٍ منها في حضن المجموعة. فتح الباب للهشاشة يجعل الأرض أكثر أمانًا للحديث عن ما يمكننا فعله وما نعجز عن فعله، ما يمكننا تقديمه وما يمكننا طلبه، يخلق تربةً للعناية الجمعية حيث نُنصت حقًا لما تقوله إحدانا أثناء عرضها وإجابتها؛ ما تقوله عن نفسها، وعن فقدها، وما تقوله عن المؤسسة، وما تقوله عن مشروعها وتحدياتها، وما تقوله عن عجزها عن طلب المساعدة، حال الكثيرين منا، ما ينقلنا للتفكير في القدرة على طلب المساعدة، والتواجد لتقديم المساعدة، ومعنى التضامن الحقيقي كجسدٍ لهذه المساعدة.

وعلى هذا الجسد أن يعرف حدوده، وأن يُنصت لإمكانياته. في لحظةٍ ما دامت لأكثر من ساعة وثقنا بما طلبه «ر» منّا. أن نتعرف على مفاصلنا، مفصلًا مفصلًا، ببطء، وتكرار، وتجريب، وفضول. كيف نحرّك كلّ مفصلٍ على حدة ونعزل الحركة؟ كيف نتحدّى بعضنا؟ ثم نضحك معًا على الهفوات الصغيرة وفقدان التوازن؟ ثم نجرّب ثانية؟

حين أجاب «ب» عن سؤال الحركة جعلنا نسمع «Je suis malade». جعلنا نشاهد داليدا المؤدية وهي تفور على المسرح، ودعانا لرؤية داليدا المريضة المتعبة المتشققة الروح وهي تصرخ في من أمامها، تُمضي عقدًا سريًا معهم، «اسمعني [...صمت...] أنا مريضة». بقيت داليدا بصرختها معنا حتى المساء. المساء المعدّ للسَمَر. تحوّلت الأمسية إلى كاريوكي نغني فيه داليدا، ووردة، وجورج وسوف، وذكريات مراهقة الثمانينات والتسعينات من فرق شبابية، وروبي، وسميرة سعيد، والشاب خالد، ورشيد طه، ومايكل جاكسون، وبيونسيه، وجانيل مونيه، وأغانٍ كثيرة مما يشكل ماضينا وحاضرنا، وما يعبّر عن أوجاعنا وسخريتنا وهشاشتنا وتفاهتنا أيضًا. كنا بحاجة للكثير من الضحك والرقص والغناء بصوتٍ مرتفعٍ لنستكمل جنازة المشاعر المفقودة، واستعراض ما نكونه نحن أيضًا خارج العروض والتقديمات والإجابات والأحاديث والمشاريع المعقّدة أو البسيطة التي نعمل عليها.

بقيت داليدا معي حتى الآن، ذهبت معي إلى جلسة العلاج النفسي بعد أن عدت، جلست بجانبي حين قلت بصوتٍ مرتفعٍ أنا لا أعرف كيف أطلب المساعدة، لكنني لست وحدي، وأريد أن أتمرّن شيئًا فشيئًا على أن أغمض عينيّ وأثق بالآخرين. رأيت هذا في وجوه كثيرةٍ من المتواطئيت وهم يشاهدونها، وظلّت هذه الوجوه معي بهشاشتها وبألفتها السريعة وبوعدٍ سري على التواطؤ ولو عن بعد.

/ / /

في التذمّر والنقد

أبدو رومانسيةً وأحيانًا ساذجةً. هل يبدو الكلام بالأعلى كذلك؟ فليكن إذن.

لحظات البوح الحميمية والهشّة والشخصية لم تكن مريحةً للجميع. حضر البعض إلى هذا اللقاء بتوقّعاتٍ مختلفةٍ ربما، وبجدرانٍ عاليةٍ وأقنعةٍ حديدية لا تُريد أن تستريح وتفتح بوابة الخوف والارتباك والمشاعر السيئة. وحسب ما استرقت من السمع هنا وهناك، كانت بعض المداخلات أو الفضفضات غير ملائمة أو مهمّة أو ببساطة كانت مضيعةً للوقت بالنسبة لهم. لكن المتعضين أنفسهم ذابوا في المساحة المتاحة للهشاشة دون أن ينتبهوا. التذمّرات الصغيرة والأحاديث الجانبية والإجابات العلنيّة كشفت عن الكثير من المشاعر، الصاخبة منها والمكبوتة. كشفت عن الكثير من الإحباط والغضب والشكّ والافتقاد للحب وللاستقرار والصحبة.

لم يخلُ عدم الارتياح هذا من طابعٍ جندريّ نمطي، فأغلب المتعضين من فيض «العواطف والفضفضات» كانوا من الرجال المغايرين جنسيًا، ما طرح إشكاليةً تأنيث العواطف والحكي والهشاشة وتذكير الجديّة والإنتاجية والاتّزان على الساحة. وددت لو أصيح عاليًا، التواطؤ فعلٌ سياسي، والشخصي سياسي، الشخصي سياسي بامتياز، لو نترك بعض الأحكام جانبًا ونتمسك بما تقوله لنا هذه الفضفضات على اختلافها وقرب وبعد سياقاتها، لكن للأسف لم يتسع الوقت ليأخذ نقاشٌ كهذا فرصته.

ربما ليس الوقت فقط هو ما لم يتّسع لهكذا أمر، كان هناك بعض التوجّس وبعض الارتباك بشأن الأداء المتوقع من المشاركات والمشاركين، وكان هناك بعض الغموض بشأن طبيعة اللقاء ظلّت ترافق عددًا كبيرًا منا حتى اليوم الأخير. وعلى الرغم من خروج بعض التذمّر وبعض النقد إلى السطح، ظلّت الكثير من التذمّرات والتذمّرات المضادة حبيسة الأحاديث الجانبية والعشاءات والأمسيات الطويلة. كنّا بحاجة إلى المزيد من الأيام لتكتمل العلاقة المتشابكة والسريعة التي بنيناها سويًا، وكنّا بحاجةٍ إلى وضوحٍ أعلى حيال التوقعات من اللقاء، وإلى بعض التنبؤ والتحضير المسبق؛ كي تتيح المساحة المشتركة التي أوجدناها بالفعل خروجًا أكثر علنيّة وحريّة للتذمّرات والتذمّرات المضادة حول العواطف والتجارب، وحول الأسئلة المطروحة، وحول ماهية الحضور، وحول اللغة، وحول الامتيازات، وديناميكيات القوة والسلطة بين الجهة المنظّمة والمدعوّين والمدعوّات، وحول التنظيم نفسه، لنتمكن من صياغة تحليلٍ ونقدٍ فردي وجماعي أكثر وضوحًا وتماسكًا كجزءٍ لا يتجزأ من فعل التواطؤ والتضامن.

/ / /

تكهّن: فعلٌ يصنع المستقبل

في الأيام الأربعة التي نَمت فيها علاقةٌ متشابكة وسريعة مليئة بالمشاعر الحميمة والهشّة ولحظات النشوة والطبخ والأكل المشترك والتذمر، كان هناك أيضًا الخيال والحلم والوهم. قادنا كلّ من «ج» و«ج» إلى معبد الكاهنة الحكيمة. الكاهنة الغائبة. تركنا عندها قرابين صغيرة وأمنيات وأسئلة.

وفي اللحظات الأخيرة من نهار اليوم الأخير، قرأت لنا «س» أوراق التاروت بشكل جماعي. قام كل منّا بترتيب الأوراق قبل السحب لنترك طاقتنا المجمّعة فيها. اعتلت وجهي ابتسامةٌ مركبةٌ حين ظهرت الأكواب بكثرة في الورق، منتصرةً للمشاعر. ظهر لنا أيضًا كرت الساحر ليعبّر عن حال المجموعة الحالي؛ بوجودنا معًا لدينا كل شيء. والكثير من النجوم؛ حالنا في الانتظار الدائم للمنح والتمويل والدعم. وعشرًا من العصى السحرية؛ حاملةً الشغف والإبداع ومحذّرةً من حمل ما لا طاقة لنا به.

مفردات
Mophradat

لكن الأمنيات والقرابين والحظّ والطالع هي مُلك الفاعل الغائب. وليكتمل فعل التكهّن، لا بدّ لنا أن نُسائل ونُحرّض الفاعل الحاضر؛ نحن، أفرادًا ومجموعة؛ ونحن، منظّمين ومُشاركات؛ ونحن، التركيبات الإنسانية المؤلّفة من مشارب وتجارب وممارسات مختلفة حين نجتمع في مكانٍ واحد. ومن هنا تأتي نيّة هذا النص في نصب طاولة عليها بعض المشاهدات، وبعض المشاعر، وبعض الأسئلة التي تصعُب حقًا إجابتها على طرفٍ واحدٍ أو شخصةٍ واحدةٍ دون البقية.

نحن بحاجة للحديث عن العمليّة والممارسة، ليس فقط ممارساتنا الفنيّة، أو عمليّاتنا المؤسسية، بل عن عمليّة اللقاءات هذه وممارسة الأحاديث والعناية الجماعية. ما هي الأسباب التي تدفعنا لتنظيم/حضور هكذا لقاءات جماعية تجمع بين الفن وعوالم أخرى قد تبدو غريبة عنه؟ إلى أين نمدّ أيدينا في هذه العتمة؟ ولم تأخذ مثل هذه اللقاءات هويّة نصف رسمية، خجولة أحيانًا واعتذاريةً أحيانًا في أنها لم تهدف بالضرورة إلى إنتاج شيءٍ ما؟ كيف نصمّم لقاءً يستجيب إلى حاجاتنا الإنسانية مثلما يستجيب إلى حاجاتنا الإنتاجية أو الاستعراضية؟ ولم نفصل هذه الحاجات عن بعضها أصلًا؟

ما اختبرته وآخرون في اللقاء كان روايةً فجّةً لحاجتنا للتجمّع والبوح التي تطغى على محاولاتنا الواعية وغير الواعية لكبتها أو تجاهلها وعدم الإنصات لها. فبدلًا من التذمّر أو الاعتذارية، كيف نعترف بهذه الحاجة؟ لماذا لا نقولها بعلانية، في أكثر من لقاءٍ مشابه لهذا، أننا ببساطةٍ شديدةٍ بحاجةٍ إلى مساحة عضوية لتبادل الأحاديث والهموم والقصص، مساحة جماعية للشفاء، دون إنتاج ودون مواعيد تسليم ودون مراقبة من أصحاب السُلطة ودون أيّ ضغط لإثبات النفس والاستحقاق وإشهار الاسم واقتناص المنحة القادمة؟

وحين نعترف بهذا، كيف ننظّم ونشارك في لقاءٍ تكون العناية الجماعية في صميمه؟ لقاءٌ يستجيب إلى حاجتنا للهدوء وللأمان وللقبول وللدعم والتضامن؟ ومن ثمّ كيف نصنع هذه العناية الجماعية بشكل تشاركي؟ كيف نفكر بأنفسنا كمشاركيت ومنظّميت في آن واحد؟ كمتواطئيت في صناعة الأسئلة والتدخّل في الجدول الزمني والتواجد في عملية التوثيق وإيجاد مساحة النقد؟ كيف نفكّر ونجرّب ميكانيزمات جديدة ومقاومة في التنظيم واللقاء والمعايشة، قد تلهمنا في الإنتاج أو عدم الإنتاج؟

من الآخِر، هذا النص هو دعوة لتحويل التكهّن، شخصيًا وجماعيًا وسياسيًا، من لحظة تأملٍ واحدة إلى فعلٍ حاضرٍ متكاملٍ يبدأ بالإجابة عن الأسئلة نفسها التي طرحتها «مفردات» بشكل فضفاض وغير مفهوم للبعض وربما لها؛ ما الحاضر وما الغائب؟ كيف نتحرك ونحرّك؟ كيف نتواطأ ومع من؟ وكيف نقاوم؟ وكيف نتخيّل ونسمح للخيال أن يساعدنا على تصوّر أين يكون المستقبل؟

كما أوردت مسبقًا، باعتقادي، كان اللقاء بمثابة تجربةٍ مقصودة وعفوية في آن واحد لاختبار مفهوم التواطؤ، لذا أنا ممتنّةٌ لفرصة كتابة هذا النص المُنهك الطويل كممارسة للأرشفة الحيّة على محاولاتنا في النجاة، ولتوثيق سرديّة شخصية وجماعية لا أريدها أن تغيب، وكهديّة متأخرّة لعيد ميلادي الذي قضيته أحتضن وأودّع أشخاصًا غرباء مُقربّين.

فرح برقاوي كاتبة ومحرّرة ومؤدية وناشطة نسوية،
من فلسطين ومُرتحلة حول العالم، إحدى مؤسسات
مبادرة «انتفاضة المرأة في العالم العربي» و«ويكي الجندر».